المقتطف

الجزء السادس من المجلد الحادي والخمسين

١ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩١٧ — الموافق ١٦ صفر سنة ١٣٣٦

الحان الحب والهجران [1]

شعر منثور

رؤيا

هدية الى مرقد السلطان حسين اعظم مؤيد للاسلام واكبر محب لوطنه في مصر

في مدة لم تطل طالت مآثرهُ ... وظلهُ قد اظل العلم والادبا

كانت لذا المصر شمساً شمسهُ زمناً ... عمَّهُ نوراً فاسمى نورها احتجبا

بالتاج والعرش ان تاه الملوك فقد ... تاها بهِ شرفاً واستكبروا عجبا

اليوم روض المنى جفت ازاهرهُ ... وغيض نهر الجدا من بعدما انسكبا

والكون في ظلمة من ليل مأتمهِ ... لا تيسر العين في آفاقهِ الشهبا

ان السما والثرى اناجوه واسفى ... بات الوجود بحر الهول مضطربا

« مترجمة من مرثية تركية رثى بها ابن كمال السلطان سليماً »

خرجت مساء ذات يوم امشي . فمررت سهفي شارع مشع الجانبين . واخذت اجيل ناظري في عناق الاشجار القائمة على جانبيهِ . وكان الغروب كاحسن ما تجلت بهِ صفحة الطريق . واشعة الشمس تنير الكون باذيالها وهي مولية تاصلة متفانية في هزات متتابعات . كأنها ارادت ان تجمل من صبغها المذاق على الزهر والنبات قبلاً لتوديع قبل ان تؤذن بزوال

وقد فاح شذا طيب من الحقول المنبسطة على جانبي الطريق . واستطال على الاحياء سكوت لاصدى معهُ وسكون لا حراك فيهِ . كأن الطبيعة كانت تحاول ذلك اليوم ان تستريح مما كابدت من الاشجان . فقد لاحت كالمطمئنة الى سكون الغروب ووحدتهِ . مستغرقة

(١) مترجمة من مقالة لسيدة من كرائم السيدات

في نوم طاب لها بعد ان اعياها طول المجاهدة

واذ امضني السأم من عيش المدينة في مشاغلها ومزعجاتها احببت ان افر من تلك الجلبات الى الحقول المتنائية ولو زمناً قصيراً . لقد احسست بالتعب في الروح دون الجسد . فزاد احتياجي لي مكان اخلو فيه بنفسي . فتركت ازقة المدينة في زحامها الذي قامت عليه حياتها وانطلقت في هذا الشارع العظيم الذي لم اكن اعرفهُ من قبل

لم اعلم وجهة مسيري . لم كنت اسير ولكن الى اين ؟ ترى اني بتسعي في هذا الطريق وحثاً اظن هكذا اطوي السبل . وما نهاية هذا الشارع . لم اعلم بشيء من ذلك ولم اشأ ان اعلم . طاب لي خلو الطريق وصفاء الوقت . فتقدمت في سيري على غير هدًى لا الوي على شيء . تباعدت عن مجرى عيش لا تسكن ضوضاؤهُ وجعلت اخطو خطوة المشتاق ابتغي السكون . ثم ذهلت عن كل شيء واستسلمت للقوة المالكة ذماي المتعالية عن مشيئتي ورحت التمس مكاناً لا صوت فيه ولا صائت . متوكلة غير متواكلة

ثم لم تلبث الشمس ان غربت . وقد اخذ يدركني الاعياء . فعمدت الى جذع جميزة في احد جانبي الطريق فجلست واستغرقت في استماع السكون

لم يكن ثمَّ احد . كأن الناس قد اخلوا هذا المكان لي . وقد بدت على حمرة الحقول آثار الزوال . وانطلقت الاطيار تجتليُ بين أكثر الاغصان ورقاً . ما احسن هذه الخال وما اجمل هذا المشهد

فبينا انا كذلك واذا صوت قد اتصل باذني خفيف الوقع لطيف الاثر . ترى من اين اتى هذا الصوت . شغلت بذلك فنهضت واقفةً ودنوت قليلاً من مأتاهُ . واذا بالصوت آتٍ من الجهة اليسرى . فلم اتمكن من مشاهدة صاحبهِ . غير اني اسرعت الى تلك الجهة . فما دانيتها الاَّ وبهتُّ لجلال ما رأيت . وبقيت مكاني واجمة حائرة . فنظرت واطلت النظر . فاذا رأيت ؟ رأيت بيكمذهباً مهيب المنظر . قد احيط بدايزونين مذهبين هما غاية في الرونق . وشكل الباب لم ترَ مثلهُ الاعين في غرابتهِ وحسنهِ . توسط اشجاراً اعتق واعلى من الاشجار القائمة على جانبي الطريق . يا ربَّ ما هذا المكان

لقد كان المدخل على شكل من الرواء لا نظير لهُ . وكان بابهُ مزداناً بالنادورات من رسوم الازهار . وفي وسطهِ كتبت هذه الآية الكريمة : (ويخلق ما لا تعلمون) قرأتها بمنتهى التعجب . وكان احد مصراعي الباب مفتوحاً والى جانب المصراع المغلق صاحب الصوت الذي كنت سمعتهُ . لم يبرح قاعداً رافعاً صوتهُ في ترتيلهِ . فظننت لما رأيت من

شكله وزيه انهُ احد القراء وكان يقرأ سورة (يس) الشريفة وهو لا ينظر اليّ ، فوقفت قليلاً استمع . وحين انتهى الى مكان وقف التبلت عليهِ اتضع واتجمل في خطابهِ . فقلت : ما اسم هذا المكان يا سيدي . وهل يتاح لي الدخول فيهِ . اني اراهُ كالروضة الغناء . فنظر الى وجهي وخاطبني بتعجب شديد فقال : من انتِ حتى تتعالي عن العلم باسم هذه الروضة التي كانوا يدعونها منذ القدم روض المنى . فأعدت السؤال عليهِ ضارعة وقلت : ما يهمك يا سيدي من العلم بذاتي . ولكن تفضل وخبرني بم سمي هذا المكان اليوم بعد ان سمي بروض المنى في ماضيهِ . فقال وهو معرض عني بوجههِ : هو ملتقى اليتامى . ثم تناول سبحتهُ وجعل يجر خرزاتها واحدة فواحدة . ولما رأيتهُ لا يريد محادثتي تركتهُ الى تعبدهِ ودفعت المصراع المفتوح من الباب قليلاً ودخلت الروضة وانا ممتلئة شوقاً ولهفاً

فاخترت طريقاً حفت بالسامقات من اشجار السرو وقد ارتفعت حتى كادت تمس الافلاك . وتكاثفت فبدت في منظر بهيج الاشجان . فمشيت ثم مشيت في سكون غامض الاسرار . وأنا تغالبني عوامل الاضطراب حتى انتهيت الى ميدان رحب قد ازدان بابهى انواع الشجر من النخيل والبرتقال وما اشبه فنظمت دوائر في ارجائهِ . وكانت تلك الاشجار مع انقطاع النسيم ملتوية الاغصان مختفية الاعالي متساقطة الاوراق كأن قد عصفت بها عاصفة شديدة فنثرت اوراقها على خضر المروج . وكانت ازهار الياسمين الملتف على سوق الاشجار التي مررت من بينها تتساقط عليَّ كالثلج في بياضهِ الناصع

عجباً ! أهاج الطبيعة أحد الخطوب . ولكن لم يبقَ موضع لتأمل ولا لتعجب . فقد ازدحمت تحت تلك الاشجار جماعات كثيرة من رجال ونساء . تدفقت كالسيل الدافق من كل مكان . واستولت على جميع المقاعد المرصوفة في انحاء الروضة . وقد كانت تتحادث فيما بينها وانا لا اسمع ما تقول . غير انها قد استلفت نظري باحوالها واطوارها الناطقة عن همومها واحزانها . فكانت طوراً تهز رؤوسها وتارة تمسح عيونها وآونة ترتدي سكوناً شاملاً . فتسير فرادى ومثنى وجماعات ما بين تلك الاشجار المهصورة الغصون حتى تتوارى عن الانظار . ترى ممن هذه الجماعات . أكانت كلها يتامى لا عائل لها . وكيف تلاقت ههنا

نسيت فراري من مشاغل الحياة واحتياجي الى السكون . والحقت بتلك الزمرة الزائرة . ورحت اقتفي اثرها عن بعد

وما زلت أتبعها حيناً من الزمن حتى انتهيت الى سرج لا نهاية لهُ . وقد انار الارجاء بساحر نورهِ بدر محا ضوء الدجى . وما كانت محاولتي الخروج من ظلمة الاشجار والدخول

في ذلك المرج المستفيض نوراً الأ ترقياً في درجات الاستغراب . لقد كان المنظر رائعاً حسناً . ولكني علمت ان ما ازدان به الميدان من الرونق لم يكن الأ بنور البدر المنتشر عليه . لاني ألفيته غير خالص من الكآبة التي كانت مستولية على الروضة كلها . وكأن ريح سموم واحدة هبت عليها فلم يخلص من اذاها موضع فيه . فصرت كلما تنفست من نسيمها احس بتجدد آلام متزايدة

لقد كان الزحام هنا اشد منهُ في الميدان الاول . فرقذف بابرة في الهواء لم تصل الى الارض من شدة الزحام . والناس وقوف يتماوجون في كل ناحية كموج البحر الخضم من كل بلد وقبيل . من رجال ونساء وصغار وكبار وشبان وشيب من اهل كل حرفة وصناعة على اختلاف الدرجات والاعمار والازياء سواء فقيرهم وغنيهم . كلهم مرتد سود الثياب . ترى من هم اولئك المحزونون . كلٌّ عليهِ الكآبة والاسى . فلم ادخل في زمرتهم بل اخذت اقتفي آثاراً صغيرة تزين مرعًى كبيراً . وكان البدر ليلة تمهِ . وضوءهُ انطل من احدى خمائل النخيل متقائل كأنهُ في ليالي الشتاء . على ان الهواء كان لطيفاً لا يدع للشتاء ذكرى

فلما بلغت منتهى تلك الآثار وجدتني تلقاء حديقة ورد . زرع هذا الورد صفوفاً صفوفاً . نبت في اشكال مربعة ومثلثة على أحسن ترتيب فلم انتبه بادىء الامر الى الوانها . ولما تأملتها رأيتها كلها سوداً قاتمة الالوان فكدت اقضي عجباً . وقد ذهبت بي الحيرة كل مذهب . رأيت ما فتح منهُ وما لم يفتح اسود شديد السواد وليس في واحد منهُ شيء من ذاك الارج الذكي . فكيف امكن ذلك ان يكون؟ أهو صنف جديد من الورد؟ فدنوت منهُ وجعلت اتأملهُ . واذا في جانب كل مربع وكل مثلث سلك دقيق علق بهِ لوح صغير يخفق عليهِ . وقد كتب على كل لوح اسم الصنف الذي علق بجانبهِ . فلما قرأت الاسماء ازداد عجبي . لان الاسماء التي قرأتها هي لصنوف من الورد ألوانها بيض او صفر أو صهب او حمر نادرة المثال بديعة الاختيار . فاي تركيب كيماوي أحدث هذا التحول ؟ فتلفتُّ حولي فلم اجد أحداً أسألهُ وكأن هذا المكان مهجور في هذه الروضة . فهل في الوقت متسع فأجلس جانباً واستجمع ما تشرد من افكاري . وبينما أنا اتحرى مكاناً على جانب المرج أجلس فيهِ اذ وقع نظري على سائر انواع الزهر الذكي الشذا . فكانت كالورد ناصلة الالوان فتطامنت قليلاً وشممتها واذا هي لا رائحة لها . فقلت عجباً ترى هل هذا البلوفر الخافي على صفحة هذا الغدير ناله من الشقاء ما نال امثالهُ وبادرت الى الجهة المقابلة للآثار التي اقتفيتها وتأملت البلوفر المتناثر على صفحة غدير دافق هناك لا يسمع لهُ خرير . فكان كسائر

ما شاهدت من الزهر . ولقد كان بعضهُ مقتطفاً من سوقهِ وذابلاً لا رائحة لهُ كأنهُ سابح يخلط بحر الآلام المتضاربة غوارب حول الطبيعة ليزيد مأتمها اهوالاً

أيها الدهر الظلوم . أما كفى فتكك بالناس وتشتيتك للشمل وهدمك صروح الاماني والاحلام وتعذيبك قلوب العباد كأنك متخذها لعباً لصفوك وطوك . ماذا تريد من الطبيعة علام تفدي القبيح بالحسن والخبيث بالطيب والهزل بالجد ؟ ان أضحكت ساعة ابكيت يوماً وان صفوت مرة كدرت الفاً . لقد ذهلت عن نفسي فاسترسلت في الشكاية . واذا صوت أتى من ورائي . فالتفت ونظرت . فرأيت اناساً قادمين من جهة المرعى . أخذوا يمرون من الطريق الذي أنا عنده فسألني أحدهم قائلاً . مخاطبين من ؟ فأجبتهُ أني اخاصم الدهر . فقال : لقد أصبت وحسبك ظلهُ الاخير . فما تقولي فيه بعد ذا يكن منك عدلاً . غير أني لم أدرِ ما اراد بقولهِ (ظلهُ الاخير) وقد استحيت ان أسألهُ . ولعل مخاطبي رثى لي . فقد قال : ان كنت الى الآن لم تعلمي ظلهُ فحلي لنذهب معاً . ولم ينتظر جوابي بل قبض على ذراعي وقادني معهُ . فلم أدرِ ما اقول . بل شاركت القوم في حزنهم الصامت وانطلقت أسير معهم . ولكن ترى كنا ذاهبين لنرى من ؟

لقد اخذ الزحام في الازدياد . ثياب وازياء مختلفة وجموع تتطالع في مشيها وتتمايل . فمررنا بينهم سائرين على خضر الربى والبطاح . متجاوزين انواع الروضات ومختلفات المدران ونحن في ذلك الحزن الاليم وتلك الكآبة البادية . ولم نزل نجدين في السير حتى بلغنا سفح رابية خضراء . فقال لي أحد الادلاء وكان الى جانبي : ها قد وصلنا وعسى ان يسعدك الحظ فتجديها وحدها . انها على ذروة الرابية . ثم لم يزد على كلامهِ هذا بل تركني في حيرتي وانصرف

وما هي الا أن راجعتني الجرأة فتقدمت أصعد الرابية رويداً رويداً . والتفت في منتصف الطريق بكثيرات من النساء وهن في شر حال . كأن الخطب الذي أصابهن كلهن ساوى في الحزن بينهن . وما كنت أعلم أن في الحزن تساوياً الى هذا الحد

ولقد ظللت مستمرة في الصعود غير ملتفتة حولي . ثم رفعت رأسي ونظرت فجمدت مكاني كمن أصيبت بصاعقة . وما راعني الا امرأة على ذروة الرابية ذات جمال لم يتسع بمثلهِ نظري قد جلست كالمضطجعة جلوساً كلهُ وقار . وعلى سيماها حلاوة تشف عن يأس في النفس قد استوقفت ناظري فلا يتحولان عنها . تردت ثوباً شفافاً من الحرير الاسود وغطت رأسها بقطعة في لون ثيابها . لا تنظر الى أحد ولا ترى أحداً . استغرقت في حزنها حتى لا انقطاع لبكائها . لا يمكن لانسان أن يراها على تلك الحال ولا يجزع رحمة

لها يدل ظاهر ألمها ان جرحها لن يلتئم ابد الدهر . فمن هي . أمات عنها زوجها أم تكلت الفلذة كبدها . علام ارى تلك العبرات تقرح اجفانها ولا يكف لها هموم . قلت وارحمت للعذبة . ودنوت قليلاً وقلبي لا يسكن خفقانهُ . فلو جمع حزن جميع الزائرين للروضة لما عد شيئاً جنب حزنها

وكلما زادني لهفي دنواً منها زادت محاسنها ظهوراً في عيني . لم تكن فتية السن بل كانت نصفاً قضت ربيع الصبا . ولكن ما كان أحلى وجهها وأتم خلقها واكرم شمائلها . رأيت عبراتها تتساقط على وجنتيها كاللؤلؤ . فلم يبقَ لي جلد وقلت بربك يا سيدتي كفي بكاء حرام عليك اني اخاف عليك العطب . وكان صوتي مرتجفاً في خطابي لها . فلما سمعت كلامي رفعت رأسها ونظرت في وجهي . وحين انار ضياء البدر محياها الوسيم سرت رعدة في جسمي . لان عينيها السوداوين وهما منفذا تلك الروح الباكية من فرط اليأس اطفئت فيها جذوة الحس والحياة فبقيت حائرة . وقلت في نفسي ليتني لم أرها . ان عيني مثل هذه الغانية كأشعة الشمس التي غربت حرارة ونفوذاً . فاستمرت حيرتي حيناً من الزمن ثم سمعت جوابها وكأنها لم تنتبه لتلك الحيرة . قالت : لماذا تقولين حرام عليك ! ما أبالي بما يحدث لي بعد ان ذهب عني . واذا لم يكن عليهِ بكائي فعلى مَن يكون . فعجبت كيف اسمع مثل هذا الانين الموجع من مثل هذا الهيكل الجامد . اما هي فاستطردت كلامها غير ناظرة اليّ . فقالت : ما كان كان . لقد عرفت جدي المعالز . اقد قضى عليّ ان احتمل ما أكابد وان اعيش اسيرة العجز . آواه لمَ ذهب عني هكذا . ثم كفّت عن الكلام فلم يسمع لها الأ نشيج . فبلغ اليأس من قلبي كل مبلغ . وتلفتُّ حولي فرأيت شيخاً من القراء يحاول الصعود الى قمة الرابية . فتوجهت نحوهُ وقلت لهُ : ناشدتك الله يا سيدي ان تعزي هذه اليائسة . فقال : وهل تقبل عزائي

هنالك عرض أمر كان فيهِ خلاصي من الجدال . فلا ضجيج لم ادرِ ماهو ولا ما شأنهُ وملأت الاسماع ضوضاه لم تكن قبل ذا مسموعة . ولم يبدُ للعيون شيء . ولكن اخذ الضجيج يزداد ارتفاعاً كما يرتفع مدُّ بحر اشتد هياجهُ . فماذا حدث ؟ وما كان المسموع ضوضاء مبهمة بل نوح يخرج من قلوب المتزاحمين في الروضة . ولكن ما هاج ذلك فيها ؟ فلم اطل انتظاراً وبادرت الى الانحدار من الرابية حتى انتهيت الى جنب تلك المراعي الجمة فوقفت انتظر عندها . وكان الشيخ القارىء على اثري وهو في اضطراب شديد . فوقف الى جنبي واخذ يهمس باشياء لم اتبينها . وفي غضون ذلك انشأت الاطيار تغرد فوق ما حولنا من

الاشجار وجعلت رؤوس النخيل ترتفع نحو السماء . فاخذ الشيخ في الدعاء . وعبق الروضة شذا انورد بطيبه وزاد البدر اشراقاً فانار صفحة كل وجه بنور جديد . تلك احدى المعجزات عاودت الظهور . فوقفنا نشاهد ما يقع

تغير ماء الغدير الجبني فصبغ بلون عسجدي واشتد اندفاعه في جريانه . ثم انقطعت تلك الضوضاء بغتة ولم يبق اثر للهياج . فسكتت الاطيار وانتشر سكوت يكاد يسد المتانفس . وتعالى شذا الورد وطيب العود تكاد تصعق لها الارواح . وبدا من الطريق المجاور للرعى خيال شفاف لطيف يمشي متعاظماً تتعالاه الهيبة والوقار . فما رآه الناس الا وعلت اصواتهم هاتفين

نطقت كل الافواه بكلمة واحدة في وقت واحد . وكان في النطق بتلك الكلمة من التضرع ومن الهيام ما يكون في سكرة الفرح لمن التقى بحبيبه بعد طول الفراق . فاعتمدت على ذراع الشيخ لكي لا اسقط على الارض من شدة الطرب . يالها من كلمة لم ادرِ كيف سبقت الناس الى العلم بها . خفق لها قلبي . فاقترن صوتي الضعيف باصوات هؤلاء الناس الذين لاقوا ايامهم بعد ان ايأسهم غيابه . وصحت بصوت يكاد يهز اقطار السماوات والارض قائلة :

مولاي . مولاي . مولاي . واهل كواكب السماء رجعت اصواتنا في استقبالنا العظيم

اما هو فقد كان يتقدم رويداً رويداً

لقد كان في سيره نحونا يوجهه السلطاني كجبال سماوي . وكان هيام الشعب لا حد له . فقد ثغروا تحت قدميه الازهار التي اشتد بها ولعه . وتحولت الورود السود فبدت بالوان زاهية . وملأت الطرق بشذاها المعطار . واخذت سنابل الحنطة تهتز وتذكر الله . وانتبهت الطبيعة كلها وعاودت الحراك بعد السكون . وفي غضون ذلك ابصرت تلك الفانية ذات الثوب الاسود الى جنبي . تحيرت فلم تدرِ ماذا تصنع . اتمشي ام تركض ام تقف . يكاد يغشى عليها من فرط الاضطراب . ولقد جفت عبراتها وراجعت الحياة عينيها الذابلتين . فصار النور ينبعث منها . فايقنت ان قد بعثت الروح في هذا الهيكل الجامد فثار كالطبيعة وكسائر الخلق وكما نحن ثائرون

ثم دنا منا ذلك الخيال المنير . وكان مرتدياً عباءة بيضاء وحياه يتألق نوراً وعيناه لزرقاوان اللتان ما انعكس اليهما شيء الا واحدث فيهما اثراً كانتا ممتلئتين حلاوة ورحمة . وعلى ذاته كلها نور وروح مستمدة من قوى العوالم العلوية . و بدا عليه شيء من السكون يدل على انه خلص من مشاغل الحياة خلاص الابد . ونجا من اختلاج العالم واضطراب الايام

جعل يتقدم في سيره متمهلاً · فتزود بنظرة الى ما لا نهاية لهُ من الخلق ومن البيت · وحين اوشك ان يرى امامهُ وثبت تلك الغانية الحزينة وثبة يأس ووقعت على قدميهِ · وجعلت تقبل اهداب ثوبهِ وتبكي بكاءً مرًّا وهي تردد قولها اي سيدي وحبيبي علام تركتني ا

فاغضى السلطان حسين واخذ يرثّت كتفيها بيدهِ ويخاطبها ملاطفاً و يقول : اي حبيبتي مصر أما كفاك بكاءً · سمعتُ باشتداد حزنك فاسرعت بالحضور لكي اراك واعزيك ·

فسرت رعدة في مفاصلها جميعاً · أهذه الباكية هي مصر · اذن فلا غرو أن يصدق الشيخ في قولهِ انها لا تقبل العزاء · ولا غرابة ان تستجمع حزن امة بأسرها : أصبتِ · نعم اصبتِ يا مصر · فابكي ما طاب لك البكاء · ابكي لفقد السلطان حسين الذي احبك حبًّا لم تذخر القلوب مثلهُ في وفرتهِ وصدقهِ وافتداك بل بذل في افتدائك شبابهُ ثم مالهُ ثم صحتهُ ثم حياتهُ · مخلصاً متعالياً في اخلاصهِ · واما مصر فبقيت مكبة على قدميهِ لا تنهض عنهما وهي مسترسلة في بث شكواها · تقول : لقد كنت محبة لك فعلام تركتني فجأة · وفي شكواها من المرارة ما لا تقوى على احتمالهِ القلوب · فقال لها انهضي يا حبيبتي مصر · وأخذ بذراعها يحاول انهاضها غير انها ظلت في بكائها كطائر الامل قد هيض جناحاهُ

قال السلطان حسين وقد بدا في صوتهِ شيء من الاضطراب : أتعلمين متى نشأ حبي لك · انك كنت منذ صباي غاية املي · تأملي ماضيّ · وحدي اعوامًا قضيتها معك · واذكري ما علمتِ في تلك الايام من جدي واخلاصي · وفكّري في علو غرام قادني اليكِ وتبدّ زادني افتتاناً بك ووجد لا مثيل لهُ جعل هواي وقفاً عليك · اذكري كل ذلك واعترفي ان حبي لك لم يزل في علوهِ نامياً حتى لقيت فيهِ منيتي · ما أحببت في حياتي سواكِ ولا اسفت حين حضرتني الوفاة الاّ لاني مفارق لك الى الابد · لقد اصبحتِ تدركين ذلك الآن · اي مصري العزيزة · ولكن كما كانت حياتي موقوفة لك كانت وفاتي في سبيلك

فلم يبقَ حولها قلب غير واجف ولا جفن غير باكٍ

ولقد شهدت خلقاً كثيراً احاط بالسلطان حسين يتنة ويسرة · فكان كل منهم يحاول الدنو منهُ جهد استطاعتهِ وكلٌّ يتهيب الدنو وجميعهم يحاولون تقبيل اذيالهِ · فوددت ان اعرف مَن احاطوا بهِ · فنظرت في وجوههم لم البث ان عرفت اقربهم من مرضعهِ اذ سبق التعارف بيني وبينهم · فهم رفاقهُ رجال الجمعية الخيرية الاسلامية واعضاء شورى القوانين واعضاء جمعية الاسعاف · وفي جانبهم كثير من اهل الحاجة ومَن لا عائل لهم والمتربين وقوق يمسحون دموعهم · وكان يرى من بين هؤلاء افواج يتقاطرون في النظر الى

ذلك الشخص اللاهوتي يعيون ملؤها الاعظام ثم ينثنون راجعين . وبينا انا اشاهد هؤلاء الناس كنت كذلك لا افتر عن رؤية الازهار التي تتفتح في اكمامها تحت قدمي السلطان حسين . تلك ازهار الفضائل التي غرس اعوادها ابان حياته في اطيب مغارس الدنيا واجودها . فهي اجناس وانواع منها ما هو للجود والكرم ومنها ما هو للرحمة والانصاف ومنها ما هو للذكاء والمعرفة . وناهيك باصناف من زاهي الورد هي علامات للقدرة . والزراعة التي كانت مرجع انسه وصفوه يد في تزيين ذاك المكان بانواع النبات مما لا يدخل تحت العد . فقد بدا شخصها محييا بباقات من الريحان تساقط حوله اجناس الثمر والفاكهة . ثم حولت عنها نظري فرأيت شاحنات البنايات التي اتخذت مدارس ومعاهد وقبابا علت اضرحة لا يعلم ساكنوها ومآذن لم تكن قد ارتفعت من قبل وتمثلت بنايات الوزارات والمصالح عن بعد كأنها قامت لتحيي مقدم الرجل العظيم وضياء البدر يتدفق عليها فيزيدها بهجة واشراقا

ولم تزل مصر مكبة على اقدام السلطان حسين في انينها المتواصل . وهي تقول اني عرفتك وعرفت قدرك بعد ان قضيت حتي . فعفواً ثم عفواً . اني احبك حبا جما . وهو حب لا يماثله في صدقه سوى ندمي . فهبني يا سيدي مغفرة تكون سلوانا اذا اشتد ما اجده لفقدك . انك تداركتني حين اشتدت العواصف في بحار الحضارة . ادركتني وانا كالانقاض وتركتني وانا كالسفينة المدرعة ظللت حيتا دليل نجاتي . وشققت لسيري امواج الحوادث مجمعا قصد الامل حتى دانيتا ثغر النجاة واذا بي قد فقدتك قبل ان تبلغ نصف الطريق اليه فخبرني ماذا اصنع الآن

فجرت عبرات السلطان حسين من عينيه الزرقاوين اللتين هما ينبوعا الذكاء . ولم يتجلد تلقاء ما تجد مصر من الحزن فاخذ بيدها وانهضها . ثم اطال في محاسنها تأملا وقال وشمائله تجاذب القلوب كالمغناطيس : اي حبيبتي . انظري اترين هذه الصور والخيالات التي تموج في اعماق هذا الافق . انها آثاري التي وثقت لاكالما في حياتي . ثم اعطني بنظرك الى تلك الجهة المقابلة لها . وتأملي هؤلاء الشبان الثلاثة . انهم ابنائي الايتام . وهم هبة مني لك وتذكار يبقى الى الابد . فراعيهم اكراما لي ولما بيننا من الحب المكين . قد شق علي اني مضيت عنهم قبل ان استكمل رياضتهم في نشأتهم : اني تبنيتهم واخالك لا تعرفينهم . ولكني كنت عزمت ان اربيهم وانشئهم لاجلك . فلا تفقديهم عنك ابدا وانشئيهم انت الآن لاجلي . فلا يعلم مقدار حزني على فراقهم الا الله وانا . وبعد وقفة لم تطل عاد الى كلامه فقال : اقبلوا ايها الاولاد . اني اريد ان استودعكم امكم . واخذ يقدم الشبان الثلاثة الى مصر واحدا واحدا .

ثم قال : اي حبيبتي انظري هذا كبيرهم الأمل . اترين ما احلى عينيهِ وما اجمل طلعتهُ وما احسن اعتدالهُ . وهذا الاوسط الفتى ما ابهى منظرهُ وما اشد نشاطهُ . وهذا الاصغر الفتى ما أنفذ نظراتهِ كأن شمس المستقبل مشرقة من بين جفنيهِ

انظري الى اوصافهم وشمائلهم تجديها تبهر الانظار . ان في معاني اسمائهم اظهاراً لفضل أشخاصهم . غير انهم في حاجة شديدة الى طول العناية والمراقبة والمداراة والاهتمام . لانهم ثمار زمن هائج العواصف . فينبغي ان يتمكنوا في منابتهم وان يشتدوا ويستنيروا بمأمن من المشاق والمحن . لقد وجدتني مضطرًّا الى تحميل كاهلك الضعيف هذا العبء الثقيل . وانا موفور الثقة أن التوفيق رائدك . ان وجود هؤلاء الشبان الثلاثة سيؤيدك في مستقبل ايامك وسيضمن لك السلامة فهم مخلوقون من معدن الذكاء . وكلما تكاملوا في نشأتهم انجابت عن آفاقك سحائب الظلمات التي أحاطت بها . هنالك تمتلىء عيناك بنور شمس غير منتظرة تخفف عنك آلام غيبتي أبد الدهر

فصمت مصر اليها الشبان الثلاثة واخذت تلاطفهم وتنظر في وجوههم لنظرات الحيرة . ثم قالت بصوت خافت مضطرب : واذا لم اوفَّق وحدي الى حسن تأديبهم وتثقيفهم فماذا اصنع يا مولاي ؟ فاطرق السلطان حينًا ثانية غير مجيب . وامرَّ نظرهُ على الجمع المحبب اليهِ المزدحم هناك بين يديهِ ووجه خطابهُ الى اسماعهم فقال : اني تارك املي ومناي وتخيلي في يد اخي وجميع بني وطني

فاحدثت كلمتهُ طربًا في السامعين واثار كامن حبهم . فرفعت الايدي والاصوات بالدعاء ورنَّ في الخافقين قولهم بلسان واحد : يعيش مولانا السلطان . فضممت صوتي الى اصواتهم بالابتهال . فدوى صوت هتافي دويًّا ملأ الاسماع واستيقظت من منامي

فبقيت حينًا مرتجفة وصوتي يدوي في اذنيَّ . ولما انتبهت زاد اضطرابي مما كان في رؤياي . فلم أعلم ماذا اصابني . غير أني علمت امرًا واحدًا وهو اني لقيتهُ وانا مغمضة العينين وفقدتهُ وانا مفتحة العينين . فاصبحت الرؤيا حقيقة وكانت الحقيقة رؤيا . فآلمني هذا الحس وأوجع قلبي . فوثبت من مضجعي واقفة . ثم فتحت باب المستشرف الذي في حجرتي وخرجت اليهِ

قد كان الفجر في اوائل اقبالهِ والريح تهب باردة رطبة ولم تهب المخلوقات من كراها . وفي الوجود سكون عجيب فلم أدرِ أمن اثر الرؤيا في نفسي أم لان اشجاني اتصلت بهذه الاحياء . لقد رأيت في ثنيات الافق وحشة وتمًّا . ما اثقل على الروح هذا الشهود . وكان الغيث في اول نوفمبر يجود بدمعهِ أوراق الورد « الحيني » في حمرتها القانية